المعلم العربي والتعليم في الارض المحتلة

الدكتور شاكر مصطفى

الذين لا يزالون يذكرون من قصص الطفولة مغامرات روبنسون كروزو يذكرون دون شك المفاجأة التي أصابت الرجل حين فتح عينيه في بعض مغامراته فاذا هو بين شعب من العمالقة يتفحصون هذا المخلوق الصغير الغريب . كل شجاعته وما عرف لنفسه من الطول والعرض انهار فجأة أمام القدم الضخمة التي تزحم قدما اخرى على طول جسده الممدد على الارض . رعب عينيه وهما تصعدان على الارجل القائمة من حوله كالاعمدة المنتصبة في ميدان مكتظ لم يكن يعد له سوى خفقة قلبه من العجز والشلل ... عاد فجأة صغيرا جدا . أصغر بكثير مما كان يخطر بباله ان يكون واضعف بكثير من ان يأتي برد فعل — اي رد فعل ! ان تذكرتم ، اذن فهذا حال الجماعة العربية في فلسطين التي نامت ليل ١٥ مايس ١٩٤٨ اكثرية وفي بلادها ولها المواطنة الكاملة . ثم صحت صباح ذلك الليل على المفاجأة الصاعقة فاذا ارضها التي دفنت فيها عشرين قرنا من الاجداد قد سحبت من تحتها واذا هي اقلية مشلولة مطوقة ثم اذا تسلط اجنبي صهيوني يتعملق حولها في كل الافاق ويتكاثر بسرعة لا تعرفها كل قوانين الديموغرافيا والجغرافية البشرية .

مأساة اللاجئين التي نعرف حول فلسطين ، لها وجهها الاخر ضمن فلسطين نفسها حتى الان . وهذا الوجه كثيرا ما ننساه . المأساة لم تكن على جانب واحد ولكن كانت على الجانبين خارج الحدود وداخل الحدود — ان الرواية لم تتم فصولا ! واذا عاش مليون من اللاجئين العذاب اللاانساني منذ ثلاث وعشرين سنة خارج وطنهم فان ربع مليون اخر منهم (أضحوا الان ٣٦٠ الفا) قد عانوا العذاب اللاانساني نفسه على اشكال اخرى تحت احتلال العدو .

بعض اشكال ذلك العذاب مصادرة الاراضي العربية وغصبها من أصحابها . فمجموع ما اغتصبته اسرائيل من الاراضي حتى نهاية ١٩٦٩ وعيون اهله تنظر : مليون وربع مليون دونم من ارض الزراعة . وبعض اشكال ذلك العذاب الحكم العسكري المباشر الذي طبق منذ سنة ١٩٤٨ في المناطق الثلاث التي يتجمع فيها العرب الجليل والمثلث والنقب وأقل حدود هذا الحكم المنع من مغادرة المنزل من غياب الشمس حتى الشروق ، ومنع مغادرة القرية الا بتصريح ، ومنع التجمع . ومع ان الحكم العسكري الغي قانونا سنة ١٩٦٦ الا انه لا يزال ساري المفعول ضد كل من تتوجس السلطات من حركته اي خيفة . انه يجمد فورا او ينفى ان لم يرافق ذلك نسف منزله. وبعض اشكال ذلك العذاب ايضا عملية الحريات ومن حقوق الانسان الاولى وتعمد التمييز الطائفي والعنصري والاهمال العمد في توفير الخدمات العامة وتفاوت الاجور والحقوق بين العمال العرب واليهود . هذا والجماعة العربية دون قيادة لان قياداتها هاجرت كلها دون برنامج للغد لانها كانت وما تزال الى الان — دون غد . وبعض اشكال ذلك العذاب ايضا عملية التعليم : معلموها وطلابها والمناهج والتخطيط التهويدي الكامن وراء كل ذلك .

ان البحث في امر المعلم العربي والتعليم في الارض المحتلة لا يمكن في الواقع ان يفهم الا في اطار هذه الخلفية من العذابات المختلفة وعلى ضوئها . ان سياسة اسرائيل الصهيونية مع اولئك العرب الذين تشبثوا بالارض والوطن لا يغادرونهما، هي خطة متكاملة الحلقات وان تكن مئوية الوجوه. ومن اي الدروب اتيتها وجدت أنها تنتهي في نقطتين : تهويد الارض المحتلة بمحو كل ما يشير